قبل أن تقرأ

١- حدث فى أوكرانيا
٢- حدث فى مصر
٣- الأرض الخصبة

obeikan.com

obeikan.com

هذه أحداث ثلاثة . . وقائع ما جرى فى أوكرانيا، وواقعة زيارة مادلين أولبرايت، وتدخلها السافر فى شئون مصر، وأخيرًا . . هذه الحالة التى يعيشها الشعب المصرى فى الوقت الراهن .

وقد أردت من خلال ضم الوقائع والأحداث الثلاثة فى فصل واحد أن أؤكد عددًا من الحقائق :

أولاً : أن مخطط التدخل المباشر وارد خاصة فى الانتخابات الرئاسية القادمة، وأن نموذج ما جرى فى أوكرانيا قد تسعى واشنطن إلى تطبيقه فى مصر، بغض النظر عن إمكانات الفشل أو النجاح .

ثانيًا : أن زيارة مادلين أولبرايت إلى مصر فى ٢٦ يناير من العام ٢٠٠٥م وتدخلها المفضوح فى شئون الصحافة والأحزاب والمجتمع المدنى أمر يكشف عن عجز النظام وعدم قدرته على حماية أمنه القومى أولاً، واستمرار أمريكا فى خطتها بأشكال أكثر فاعلية ثانيًا، فبعد زيارة أولبرايت تجسدت الوقاحة الأمريكية فى قيام السفير السابق «ديفيد وولش» بتقديم مليون دولار أمام وسائل الإعلام لست من منظمات المجتمع المدنى المصرية داخل مقر السفارة وأغلبها كان مكلفًا بأجندة سياسية من مراقبة الانتخابات إلى تقديم التقارير .

ثالثًا : أن التقرير الثالث هو مجرد رصد لحالة الشعب المصرى فى الظرف الراهن، وهى حالة تعكس تراجع مستويات الدخل، وازدياد حدة الفقر، وتراجع الأمل، وغياب الفعل السياسى والمشاركة فى صنع القرار، وكل هذه أرضية خصبة لقوى التطرف فى الداخل، والقوى المتربصة بالوطن فى الخارج .

. . فقط مطلوب التأمل . . قبل أن نغوص فى قراءة المخططات وآليات الفعل الأمريكى والغربى والداخلى أيضًا .

١- حدث فى أوكرانيا

قبيل أن يغادر إلى بلاده، استدعى السفير الأمريكى «ديفيد وولش» فى مصر ستة من المارينز الجدد، أعلن فى مؤتمر صحفى بحضور وسائل الإعلام أنه قرر منحهم مليون دولار، تدعيمًا «للديمقراطية والإصلاح»، علت الابتسامة وجوه المشاركين فى الحفل، تسلموا الشيكات، انصرفوا وهم على ثقة أن أحدًا لن يقترب منهم!!

لم تكن تلك هى البداية . . فالأموال الأمريكية والصهيونية والغربية تزحف إلى الجيوب منذ ما يقارب العقدين من الزمان، بالأمس كانوا يحاولون التبرير، أما اليوم فهم يعلنونها صريحة نحن جند أمريكا القادمون، تذكرت مقولة كولن باول «أمريكا لن تساعد هذه المنظمات إلا إذا أصبحوا جنودًا أمريكيين مخلصين!!».

الأموال تتدفق بلا حساب: من صربيا، إلى جورجيا إلى أوكرانيا إلى مصر إلى اليمن إلى الأردن إلى لبنان، واشنطن تعلن أنها حجبت ٢٠ مليون دولار من المعونة الأمريكية المقدمة لمصر، وقررت تخصيصها لمنظمات المجتمع المدنى، ناهيك عن المبالغ التى تتدفق من العديد من الهيئات الأخرى، أموال تدخل الجيوب بلا حساب بعضها معلن وبعضها غير معلن.

جورج سورس فى قلب الحدث، والمعهد الديمقراطى الأمريكى والمعهد الجمهورى الدولى، ونوفيب ودانيدا وفوردفونديشن وحتى جامعة حيفا الإسرائيلية، الكل يدفع والكل يُعد لكوادر اللحظة القادمة، وحتى الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية لم تتوان هى الأخرى عن تقديم الأموال ورعاية المؤتمرات.

فى يناير ٢٠٠٣م أصدرت الوكالة تقريرًا يحمل عنوان «المساعدة الدولية باسم المصلحة الوطنية» قالت فيه: من الآن فصاعدًا لن تحتفظ الوكالة ببرامجها لأجل التخفيف من مآسى الإنسانية، لكنها شرعت بتشجيع الإصلاحات الديمقراطية.

فى صيف ٢٠٠٣م سافر چيمس بيكر إلى جورجيا، كانت واشنطن قد أعدت العدة وهناك وقف بيكر يحذر الرئيس الچورچى الشرعى، دعاه إلى ضمان شرعية الانتخابات، أبلغه رسالة واضحة أن واشنطن لن تقبل بالديكتاتورية، وكان يشير بأصابعه إلى «ميخائيل ساكشفيلى» ذلك المحامى الشاب وكأنه الرجل المنتصر!

دعوه إلى ملتقى دراسى فى بلجراد ليتعلم كيفية إقامة ثورة مخملية كتلك التى شهدتها صربيا، كانت مؤسسة چورچ سورس «معهد المجتمعات المفتوحة» هى التى تتولى الإشراف المالى والسياسى، چورچ سورس رجل الاقتصاد اليهودى المجرى الأصل، الأمريكى الجنسية كان هو المسئول الأساسى الذى أشرف على تدبير عملية الانقلاب السلمى فى چورچيا فأطاح بـ «شيفرنادزه»(*) وجاء بـ «ساكشفيلى»، بعد أن أسس حركة شبابية قدم إليها ملايين الدولارات حملت شعار «يكفى»، إنها شبيهة بحركة «أبتور» الصربية التى أسقطت ميلوسيفتش فى بلجراد سنة ٢٠٠٠م، وهكذا تمكنت المئات من منظمات المجتمع المدنى من إحداث الانقلاب فى چورچيا.

كما هو الحال فى يوغوسلافيا ثم انتقلت التجربة إلى أوكرانيا، كانت الخطة معدة جيداً، هناك ٣٠٠٠ منظمة من منظمات العمل المدنى التى تم تأسيسها بمقتضى القانون الصادر عام ١٩٩٦م، وحسب الإحصاءات الرسمية فإن ٦٨ مليون دولار قدمت لهذه المنظمات كدعم أمريكى لها، قررت واشنطن إسقاط النظام الحليف مع روسيا، اختارت لهذا الغرض واحداً من رجالها، إنه «فيكتور يوشينكو» دفعت به إلى انتخابات الرئاسة وفرت له ملايين الدولارات وأعدت معه السيناريو.

صدرت التعليمات إلى فرق المارينز المسماة بمنظمات المجتمع المدنى، انطلقت إلى الشارع فى ظل حماية أمريكية معلنة الهدف إسقاط «يانوكوفيتس».

بدا المشهد وكأنه ثورة شعبية يقودها الديمقراطى «يوشينكو» فى مواجهة الرئيس الحالى، ارتفعت الأعلام البرتقالية، انطلقت الشعارات تعلن الثورة، كانت الأموال توزع فى ساحات التظاهر وكانت الأيادى الخفية تلعب، وكانت الخطب والسيناريوهات تعد مسبقًا، تحت إشراف أمريكى مباشر، وهكذا أصبح كل شىء جاهزاً للتنفيذ.

كانت البداية العملية استفتاءات مزورة صنعتها منظمات ممولة من قبل مكتب الاستعلامات المركزية الأمريكية، والمؤسسة القومية الديمقراطية، صبت جميعها لصالح يوشينكو.

(*) كان شيفرنادزه وزير خارجية جورباتشوف فى آخر سنوات الاتحاد السوفييتى. وقام بدور فعال فى تفكيك الاتحاد السوفييتى، وعلى إثره فاز برئاسة چورچيا، وعندما انتهى دوره استبدل بآخر أكثر موالاة للسياسة الأمريكية.

بدأت الانتخابات يوم الأحد ٢١ نوفمبر ٢٠٠٤م، وعند الثالثة ظهراً بدأ «يوشينكو» فى تنفيذ السيناريو، بدأ أولاً فى إخطار وكالات الأنباء بأن أكثر من ٢٥٠٠ مراقب دولى مُنعوا من المراقبة فى مكاتب التصويت، وعلى الفور دفع بنشطاء المنظمات الممولة للتجمع أمام مقر اللجنة الانتخابية الرئيسية والتنديد بتزوير الانتخابات!!

فى الثامنة مساء أغلقت صناديق الاقتراع، وقبيل الفرز أعلن الموفد الخاص للرئيس بوش «ريتشارد لوجار» أنه يجب إلغاء الانتخابات، ومع بدايات الفرز كان الرئيس «يانوكوفيتش» يبدو متفوقًا إلا أن العديد من المعاهد الممولة راحت تعطى توقعات بفوز «يوشينكو» بنسبة ٥٨٪ مقابل ٣٩٪.

لم تكن صناديق الانتخابات قد اكتمل فرزها بعد، ومع ذلك دفع بعشرات الألوف من النشطاء إلى وسط العاصمة «كييف» ليعلنوا الانتصار.

وفى منتصف الليل كانت اللجنة الانتخابية قد أعلنت أن «يانوكوفيتش» حصل على ٥١,١٣٪ بينما حصل «يوشينكو» على ٤٨,٤٥٪، ثار «يوشينكو» وأنصاره ضد النتائج الأولية وأعلن أن الانتخابات مزورة حتى قبيل أن تعلن اللجنة تقريرها النهائى ودعا أنصاره إلى إعلان المقاومة غير العنيفة ضد الديكتاتورية.

بعد ساعات قليلة كانت النتائج النهائية تشير إلى فوز «يانوكوفيتش» بـ٥٧,٤٩٪ وهزيمة منافسه «يوشينكو» الذى حصل على ٥٧,٤٦٪.

ساعات قليلة ويصدر بيان من منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا تقول فيه: إن أوكرانيا لم تف بالمعايير الدولية للانتخابات الديمقراطية، وبعد ذلك بساعة واحدة كان المندوب الأمريكى «ريتشارد لوجار» يتهم السلطات الأوكرانية بفبركة النتائج.

وفى نحو الثامنة مساء كان الرئيس الروسى «بوتين» هو أول من هنأ السيد «يانوكوفيتش» بالفوز، إلا أن واشنطن راحت تمارس ضغوطها على الرئيس الروسى لإجباره على سحب اعترافه، وراحت تطلق العديد من المنظمات فى أمريكا والخارج لاتهام أوكرانيا بتزوير الانتخابات وعدم الأعتراف بشرعيتها، بينما نزل الشارع أكثر من مائة ألف متظاهر فى شوارع كييف.

كان كل شيء معداً، آلاف الخيم والأغطية وضعت تحت تصرف قيادة المتظاهرين الذين انتمى أغلبهم إلى هذه الجمعيات الممولة، وقيل إن مبالغ وصلت إلى ثلاثة آلاف دولار للفرد كانت توزع عليهم شهريًا كرواتب، إلى جانب ذلك كان هناك الإعلام المحلى والدولى الذى لعب دوراً مهمًا فى تشويه نتائج الانتخابات، ثم بدأت الإدانات تمتد من واشنطن إلى بولندا إلى كندا إلى دول الاتحاد الأوروبى، ووصل الأمر إلى قمته عندما راح «بوتين» يتراجع عن اعترافاته.

أجبر «يانوكوفيتش» على إعادة الانتخابات، وقبيل أن تعلن النتيجة كان الغرب قد أعد سيناريو الإعلان عن فوز يوشينكو فى جولة الإعادة.

* * *

٢- حدث فى مصر

فى العاشرة من صباح ٢٦ يناير ٢٠٠٥م، كان موعد اللقاء، صعدت «مادلين أولبرايت» إلى المقطم، ارتدت فستانًا أسود يكشف عن ساقين كثيراً ما تباهت بهما أمام كبار المسئولين الذين كثيراً ما أطلقوا أحلى عبارات الغزل والاستحسان.. نظرت إلى الوردة التى تزين قماش الفستان باتجاه كتفها الأيسر، ابتسمت ثم ارتدت عقداً من اللؤلؤ الأبيض الجميل..

كانت التجاعيد قد زحفت وهيمنت على الوجه الذى ينطق شراسة، لكنها راحت تمسك بأدوات المكياج ثم قالت:

الآن أصبحت فى كامل أناقتى.. قالتها «مادلين أولبرايت»، وأطلقت قهقهة عالية استمع إلى صداها «وبن ويبر» العضو السابق بالكونجرس الأمريكى الذى رافق وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة فى رحلتها «التنويرية» إلى قاهرة المعز..

صعدت «مادلين» إلى المقطم، إنها على موعد هو أشبه بالموعد الغرامى مع سعد وبطانته فى مركز ابن صهيون.. ابن خلدون سابقًا.. كانت الإجراءات الأمنية شديدة للغاية، عساكر ومخبرون.. ضباط ومتخصصون فى مكافحة الخطف والإرهاب..

هناك على سفح المقطم كان «المتعوس» على موعد مع «خيبة الرجا» وإلى جواره جلس بعض المتاعيس الآخرين، كلٌ وتعسته.. جلست «أولبرايت» وسط الشلة

إياها . . وضعت ساقًا على ساق، أرخت بهدوء عضلات وجهها، بدت كأنها ترتدى وجهًا آخر، أليفًا، هادئًا، وديعًا . . كانت عدسات الكاميرات تلتقط هذه اللحظات النادرة فى تاريخ السيدة التى أطلقت فى يوم ما مقولتها الخالدة عندما رفضت التمديد لـ «بطرس غالى» فى الأمم المتحدة، وقالت وكأنها واحدة من فتيات الحوارى: «أقطع شعرى إذا تم التمديد».

حول «أولبرايت» اجتمع سعد الدين إبراهيم، وفريد حسنين، ومرسى الشيخ، وجمال البنا، ومدحت خفاجة وثلة أخرى من الذين ابتلينا بهم فى هذا الزمان، كلٌ جاء لهذا المركز لعلة يعرفها القاصى والدانى، أطرقوا آذانهم يستمعون إلى النصائح، أخرجت «أولبرايت» من جيبها ورقة تتضمن عناصر محددة . . إنها روشتة . . الإصلاح . . التى أقرتها أجهزة الاستخبارات الأمريكية لعلاج المصريين من أمراض الانتماء والعروبة والثقافة والدين . . استمع سعد إلى الكلمات بإنصات شديد . . ثم راح يطلق الكلمات . . أنا مطارد، أنا مضطهد، أنا مسكين، أطلب دعمكم وحمايتكم . . أرجوكم أن تأتوا إلى هنا للإشراف على انتخابات الرئاسة، أنا مرشح ولى جماهير تريد انتخابى وتوليتى رئاسة الجمهورية فى مصر . . اشتاط فريد حسنين غيظًا، وراح هو الآخر يقدم نفسه باعتباره البديل المناسب وراح يطالب «أولبرايت» بأن تسأل الإسرائيليين عنه، فهو أصبح الآن من أشد المخلصين للتطبيع، وأنه التقى بـ «شيمون بيريز» الذى بارك خطواته وشد من أزره. كان الحوار طويلاً واستمر لأكثر من ساعة ونصف الساعة، لكن دلالة الحدث كانت أخطر، لقد جاءت «أولبرايت» إلى هنا، وافتتحت جولتها من هنا، لتقول للجميع، لنظام الحكم وللشعب المصرى: إن لنا قاعدة فى المقطم، سنسعى إلى دعمها بكل ما نملك، بالمال والحماية والإعلام . . هؤلاء هم رجالنا المخلصون، ولا يستطيع أحد منكم كائن من كان أن يلمس أحدًا فيهم.

من هناك، من المقطم، عادت «أولبرايت» لتلتقى بعدد من المثقفين ورجال الأعمال على غداء فى قاعة «فرحتى» بفندق جراند حياة، ويا لفرحة «أولبرايت» بمثل هذه اللقاءات التى راحت تهدد من على منابرها وطنًا كنا نظن أنه ذو سيادة، لكن أمام «أولبرايت» كل شىء يهون، هددت وتوعدت، أطلقت صيحات التحذير للنظام المصرى، عليكم تبنى الإصلاح وإلا فلن تنالوا من اتفاقات التجارة شيئًا . . وبين

الفنادق واللقاءات الخاصة وزيارة جريدة «المصرى اليوم» كانت «أولبرايت» تطلق ساقيها للريح.

وفى صحيفة «المصرى اليوم» ـ التى اشترى أسهمها عدد من رجال الأعمال منهم السيد صلاح دياب وكيل شركة «هاليبرتون» لخدمات النفط فى مصر ـ كان اللقاء مع عدد من الشخصيات منهم عبدالمنعم سعيد وصلاح منتصر ومحمد سلماوى ومها عبدالفتاح وسليمان جودة ومجدى مهنا وهشام قاسم العضو المنتدب للصحيفة، وهو بالمناسبة عضو مجلس إدارة مركز ابن خلدون.

وفى اللقاء الذى حضره عدد من المحررين بالصحيفة قالت «أولبرايت»: «إن سبب اختيارها جريدة «المصرى اليوم» هو استقلالية الجريدة وتبنيها وجهات نظر جديدة وجديرة بالاهتمام، وتبنيها نظرة تقدمية عن دور الصحافة والديمقراطية.

فى هذا الوقت كانت الصحيفة قد اتخذت قراراً بإبعاد رئيس تحريرها أنور الهوارى لمجرد أنه اعترض على نشر إعلان عن خمور الويسكى، وسمح فى عموده لبعض القراء أن ينتقدوا إقدام صحيفة مصرية على نشر إعلان فاجر بهذا الشكل، فما كان من السيد هشام قاسم الحاكم الفعلى للصحيفة والمسئول عن العلاقة مع السفارة الأمريكية إلا أن قام بوقف الزميل أنور الهوارى رئيس التحرير عن العمل وكذلك الزميل عادل القاضى مدير التحرير لمدة شهر ثم يجرى التحقيق معهما تمهيداً لفصلهما.

وبعد ذلك أجبر على ترك العمل بالصحيفة... إنه نموذج للديمقراطية جدير بالاهتمام.

فى المساء كانت «أولبرايت» على موعد مع قيادات حزب الغد على عشاء أقامته الدكتورة منى مكرم عبيد سكرتير عام الحزب ـ التى قدمت استقالتها مؤخراً ـ فى منزلها وبحضور عدد من قيادات الحزب أبرزهم أيمن نور وآخرون.

***

٣- الأرض الخصبة

هل قرأتم هذا التحقيق الخطير الذى نشرته صحيفة «الأهرام» القاهرية ٧ يناير ٢٠٠٥م وهل تأملتم الأرقام وعرفتم الأسباب؟ . . ثم الأهم ماذا أنتم فاعلون؟

كان التحقيق ينضح بالمرارة، الكلمات جاءت على ألسنة عدد من كبار أطباء القلب وأساتذة الجامعات المصرية، جاءت الحقائق صارخة، والتقارير العلمية دامغة . .

قال الأساتذة: إن ربع المصريين مصابون بضغط الدم، و٥٠٪ من الشباب فوق سن الـ ٢٥ لديهم ارتفاع فى ضغط الدم، وهناك ٥ ملايين مصرى يصابون بالضغط سنويًا وينضمون إلى القائمة!!

أذهلتنى الأرقام، أصابتنى بالصدمة، إنها تشبه تلك الأرقام التى تحدث عنها من قبل أستاذ الطب النفسى ورئيس الجمعية العالمية للأطباء النفسيين د. أحمد عكاشة، الذى أكد أن نحو ٦ ملايين مصرى مصابون بأمراض نفسية، وأن هناك حوالى عشرين مليونًا مصابون بأعراض الاكتئاب.

توقفت أمام مقولة أطلقها د. هانى عبدالرازق نائب مدير المعهد القومى للقلب فى هذا التحقيق المثير، حيث قال: «إن ضغط الدم المرتفع مجهول السبب فى حوالى ٩٥٪ من المرضى»!!

ابتسمت ساخرًا، لأننى أدرك أن د. هانى يعرف الأسباب جيدًا، وربما قرأها فى وجوه المرضى، أو استمع إليها من باب الفضفضة، التى يلجأ إليها المريض، وكأنه أمام لحظة الاعتراف الأخير!!

ياه!! ـ ٥ ملايين يصابون سنويًا بحرق الدم، أى أن دم الـ٧٠ مليون مصرى قد احترق، فى ١٤ عامًا مضت، إنه إنجاز رائع لحكومة الحزن وحزن الحكومة، هكذا تكون الإنجازات، وهكذا تتحقق المساواة بين أبناء الشعب العامل.

ثمة سؤال يطاردنى: ترى هل إخواننا من كبار الحكوميين وأتباعهم وأتباع أتباعهم قد نالهم من الحظ نصيب؟، هل احترقت دماؤهم مثلنا؟ وهل أصيبوا بأمراض القلب وتبعاتها، كدليل على الشفافية وتكافؤ الفرص، أم أنهم« رايقين وهادبين وكده حلوين؟!».

لست فى حاجة إلى أن أبحث عن الأسباب والمسببات، فكله على عينك يا تاجر . . إذا نزلت إلى الشارع قطعًا دمك سيحترق، وترتفع معدلات الضغط بطريقة تذهلك، الناس عصبيون، الوجوه تبدو مكشرة، مكتئبة، اختفت الابتسامة فى ظروف غامضة، تزايدت حالات المجانين الذين يقفون على نواصى الشوارع، بعضهم يسعى إلى تنظيم المرور فى محاولة للتأكيد أن الجنون ظاهرة طبيعية وفعل حضارى . . وهناك من يمضى إلى غير سبيل يحدث نفسه، فيظن أنه يلهم الجماهير . . عيون زائغة تحملها أجساد يقال إنها آدمية، تشعر فيها بحزن ومرارة تعكس الأزمة .

حوادث السيارات تعددت، فى عام واحد يسقط أكثر من ٢٣ ألف قتيل وجريح، حوالى ربع ما خسرناه من شهداء فى كافة الحروب التى خاضتها مصر فى عهدها الحديث، لماذا يحدث ذلك، مع أن وسائل المواصلات قد تقدمت، والطرق جرى إصلاح وتطوير الكثير منها؟ . . إنها الحالة التى طغت على حياة المصريين فى هذه الأيام .

يخرج السائق من منزله، تلاحقه المطالب وتحاصره من كل اتجاه، يدب خناقة عنيفة مع زوجته، يقول إنها لا تقدر ظروفه، وأبناء يصدعون رأسه بالمصاريف والأكل والشرب، وفى مواجهة المنزل يتعمد البقال أن ينظر إليه شذرًا، يطارده فى الرايحة والجاية، لماذا لا تسدد ما عليك؟ غدًا سيأتى كشاف العدادات، لم أدفع فاتورة الكهرباء بعد، هناك أكثر من تهديد بقطع الكهرباء عن المنزل . . يشتم رائحة اللحوم فى الشارع، ياه وحشانى يا حلوة أكثر من شهرين وأنا أنتظر منك قطعة . . يمضى السائق مسرعًا، يبدو عقله شاردًا، إنه يفكر كيف الخروج من الفقر المدقع؟ كيف يسدد ما عليه من ديون؟ . . يشعر أن دماءه تحترق، دوس بنزين، وفجأة تحدث الكارثة وينتهى كل شىء .

أصبح المصرى بلا أمل . . لم يعد لديه خيار، يجب أن يرضخ ويستكين، ينتظر الفرج لكنه يأبى أن يأتى، تمضى الأيام ثقيلة، وفى النهاية يبدو كمن يبحث عن الموت بأى وسيلة . . إنه يريد أن يرتاح من عبء المشاكل والأزمات .

تزايدت حالات الانتحار بشكل كبير، هذا شاب عاطل عن العمل، بحث فى كل السبل، وقف أمام الطوابير ساعات وأيامًا، حاول أن يجد لنفسه فرصة، والده

صرف عليه دم قلبه وانتظر، لكن الانتظار طال، أصبح الشاب عبئًا على الأسرة من جديد، تأمل واقعه، نظر إلى مستقبله، وفى النهاية أطلق ساقيه للريح، وغاص فى عمق النيل.

وقائع بشعة تنشرها الصحف عن آباء يعجزون عن تدبير جنيهات قليلة كمصاريف دراسية أو ملابس مع بداية العام، مطالبهم محدودة، لكنهم عاجزون، وفجأة يصبحون مجرد خبر صغير فى صفحة الحوادث.

يسمع المسئولون بالوقائع، يبتسمون بهدوء غريب، ولا يعلقون، إنه تصرف شخصى، ونحن فى زمن الحرية واحترام الآخر، من حقك أن تعيش محترق الدم أو تموت كمدًا، فكلا الخيارين سواء.

منذ عدة أشهر نشرنا واقعة انتحار الباحث المرموق عبدالحميد شتا، الذى حصل على المركز الأول فى مسابقة الملحقين التجاريين بوزارة الاقتصاد، إلا أنه استبعد وعندما سأل عن السبب قيل له: «أنت غير لائق اجتماعيا لأن أباك فلاح». احترق دمه، اشتعل غضبه، أدرك أنه لا مكان له، مضى بخطى حثيثة إلى كوبرى قصر النيل، وهناك ألقى بنفسه فى جوف النيل.

كنا نظن أن واقعة كتلك كفيلة بأن تسقط حكومة، أو تفتح باب التحقيق لتوقيع العقاب على الظالم، كنا نظن أن الوزير المسئول فى هذا الوقت «جناب يوسف بك بطرس غالى» سيجرى توبيخه على تلك الإهانة التى وجهها لملايين الفلاحين والفقراء فى مصر، لكن واأسفاه، لم يعلق أحد، لم يفتح أحد بابًا للتحقيق، قسم الشرطة قيد القضية مجرد انتحار مجهول السبب، ويوسف بطرس غالى تمت ترقيته وأصبح وزيرًا لمالية مصر!!

كيف لا تحترق دماؤنا؟ ونحن نرى مجتمعنا وقد تفتت إلى قلة قليلة تحكم وتتحكم، تمتلك كل شىء، تسخر القانون كما تريد، وأغلبية ساحقة لا تمتلك قوت يومها، أعياها التعب والألم والتهميش، بينما فقدنا ما كان يسمى بالطبقة الوسطى التى جرى تفكيكها وسحقها وبيعها لتجار الخردة.

ليس مهمًا أن يكون البهوات الجدد عقولاً تفكر، أو وجوهًا تتميز بالاستقامة ونظافة السمعة، كل ذلك ليس مهمًا، المهم أنهم ينتمون إلى ذلك النسل الغريب،

الذى طغى على المجتمع وتسيده، واستولى فجأة على كل الفرص، واحتكر لنفسه السلطة والثروة، وأغلق الباب أمام الجميع.

فى كل مؤسسة، وفى كل وزارة، أصبح الشعار المرفوع «متمترسون للأبد»، لا أحد يبرح كرسيه، الكل ثابتون، باقون مخلدون، يبررون بقاءهم، فلا أحد يصلح فى مصر سواهم، إن الوطن لم ينجب مثلهم، أما بقية السبعين مليونًا فهؤلاء هواة، هامشيون، لا يصلحون.

فلنتركهم حتى تحترق دماؤهم وساعتها سيصمتون ويكفون عن النكد الأبدى، والحديث عن البديل وتواصل الأجيال.

مطلوب منا جميعًا أن نلهث وراءهم، وأن نحمى ظهورهم، وأن نبقى مجرد فواعلية فى بلاطهم، أن نغنى لهم ونصدح لمنجزاتهم، أن نزيف التاريخ لأجلهم، أن نبرر أخطاءهم، وأن نختصر مصر فى أسمائهم، ثم نهتف من أجل بقائهم إلى الأبد جاثمين على الصدور؛ لأنه لا بقاء للوطن من بعدهم.

كيف لا تحترق دماؤنا، ونحن نرى القطاع العام وقد بيع بأبخس الأثمان، فندق شهير يباع بـ٧٥ مليون دولار مع أن دخله السنوى يزيد على الـ٦٠ مليون دولار، فندق آخر فى مدينة نصر يباع بـ ٩ ملايين جنيه مع أن الأرض التى أقيم عليها تساوى وحدها ٢٤ مليون جنيه، شركة كبرى للأسمنت تم شراؤها بمليار و٢٠٠ مليون جنيه تم الحصول عليها كقرض لأحد رجال الأعمال، وبعد ٤ سنوات عرضها للبيع بأكثر من ٤ مليارات جنيه، وقس على ذلك كثيرًا.

ترى هل هناك أبشع من قضية يوسف والى؟ منذ زمن طويل والصحافة تصرخ وتشير بالبنان وتتهم يوسف والى اتهامات مباشرة.. كنا نقدم الوثائق الدامغة على الفساد والإفساد، ولكن يوسف والى ظل متمترسًا فى موقعه!

كنا نقول: إن يوسف والى أصبح مركز قوة حقيقيًا فى البلد وصل به التحدى إلى حد منع الرقابة الإدارية لأكثر من سبع سنوات من دخول بوابة وزارة الزراعة، ويعين الفاسدين فى مواقع مهمة وخطيرة رغم أنف الجميع، ولكن كأننا كنا نؤذن فى مالطة.

وعندما كتبنا وكتب غيرنا عن قضية المبيدات المسرطنة، وقلنا: إن هناك مئات الآلاف يصابون بسرطان المعدة من جراء المبيدات التى حذر منها الجهاز المركزى للإحصاء منذ عام ١٩٩٧م، كان يوسف والى يخرج لسانه للجميع، يتحدى، ويستمر فى مخطط تدمير صحة المصريين وإصابتهم بالأمراض القاتلة.

ترى هل كان رجالات النظام غائبين؟ ألم يكونوا يقرءون ما نكتب؟ ولماذا اعتبروا أن كلام الصحافة لا يقدم ولا يؤخر؟ وما رأيهم فى الحكم الذى أصدرته محكمة الجنايات مؤخراً بإحالة يوسف والى للتحقيق؟

ألا يمثل ذلك تأكيداً لكل ما نشر خاصة أن المحكمة لم تقرر إحالته للتحقيق بتهمة المبيدات المسرطنة من فراغ، بل إن لديها من الأدلة والبراهين ما يؤكد ذلك. إن هذا فى حد ذاته يحرق الدماء ويصيب الناس بالجنون.

أعرف أن البعض لا يريد استقراراً لمصر، وأدرك أن بعض العملاء يزج بهم، ولكن يجب ألا تنسوا أن شعب مصر واع، وأنه يستطيع فرز الغث من السمين، وأنكم بإصراركم على التعامل بهذه الطريقة المهينة إنما تفتحون الباب لقوى التآمر فى الداخل والخارج لتنفذ، وتحول مصر إلى عراق آخر. ولا أظن أن الحملة الأمريكية ـ الصهيونية التى تزعم امتلاك مصر لمشروع نووى لإنتاج الأسلحة بريئة من ذلك، بل ولا أظن أن محاولة تأجيج الفتنة الطائفية فى مصر قد جاءت اعتباطاً.

إن أمريكا وعملاءها يترصدون لمصر، ويتآمرون عليها، وللأسف بدلاً من أن يلجأ النظام إلى الشعب ليكون حصنه العنيد فى مواجهة سيل المؤامرات والطوفان، إذا بالحكم يلجأ إلى أسهل الحلول، ظنًا أن ذلك من شأنه أن يوقف التآمر.

فبعد فترة طويلة من الرفض، فتحت مصر أبوابها لمشروع الكويز الأمريكى ـ الصهيونى، ليمثل بداية كاسحة لاختراق الاقتصاد والصناعة المصرية، ومهما حاولت الحكومة أن تجمل فى ذاك الوجه القبيح لهذا الكويز، فإنها لن تنجح؛ لأننا نعرف أن «الكويز» لا تقل خطورته عن اتفاقات كامب ديفيد المشئومة، بل هى البداية الحقيقية لمشروع السيطرة والهيمنة الصهيونية على المنطقة بأسرها.

سلم النظام الجاسوس عزام عزام إلى العدو الصهيونى، وتخلى عن كل لاءاته السابقة، وراح البعض يقولون إن دماء أبنائنا الستة أهم لدينا من أى جاسوس

صهيونى، ولكنهم نسوا فى غمرة الحماس الكاذب أن هناك العشرات من المعتقلين المصريين فى السجون الإسرائيلية، وأن ما جرى يعنى ترسيخ قاعدة تقول: إن إسرائيل ستسعى بكل قوة للإفراج عن أى جاسوس يقبض عليه فى مصر، وأن ذلك يطلق أيديهم للعبث بالأمن القومى المصرى، خاصة هؤلاء «المحصنين» الذين سيأتون إلى بلادنا تحت عنوان «الكويز».

كان طبيعيّا أن تحترق دماؤنا ونحن نرى «إسرائيل» تقتل أشقاءنا فى فلسطين وعلى الحدود، كان طبيعيّا أن نشعر بالمهانة أمام اغتيال الشهيد أحمد ياسين والرنتيسى ومن قبلهما الطفل الشهيد محمد الدرة دون أن يكون هناك رد فعل، مجرد تحذير، مجرد تهديد بطرد سفير أو وقف التطبيع.

كان طبيعيّا أن نصرخ ونحن نرى عدوان «إسرائيل» على حدود مصر، بيوتًا تهدم فى رفح، وجنودًا مصريين ثلاثة يسقطون شهداء بينما يؤدون واجبهم داخل سيناء، وتكتفى إسرائيل فقط بتوبيخ القتلة.. لم نسمع رد فعل مصريّا واحدًا يقول «لا» أو يحتج على ذلك، فقط كلام باهت أطلقه وزير خارجيتنا ذكرنى بـ «عبدالفتاح القصرى»: «خلاص.. بلاش المرة دى».

أين مصر والعروبة؟ أين مصر الشامخة؟ أين الموقف أمام ما يجرى الآن فى العراق الشقيق؟ لماذا نلتزم الصمت ونحن نرى الجريمة تمتد من بلد إلى آخر لتصل إلى سوريا ولبنان؟ ماذا فعلنا للسودان الذى يمزق الآن أوصالاً وتجرى إعادة فكه وتركيبه وفقاً لأسس معادية للأمة وللأمن القومى المصرى ولمصلحة السودان؟

هل نخاف؟! حتى الخوف لن ينقذنا من المصير والمؤامرة التى تعد لنا الآن، إنهم لا يتوقفون، والتنازلات تغريهم وليس العكس، ومهما قدمنا أو فعلنا فلن يتوقفوا عن مؤامراتهم إلا بتخريب مصر والسعى إلى تقسيمها والقضاء على وحدتها.. إنها هدفهم فى المرحلة القادمة.. إذن ليس أمامنا من خيار سوى إعادة إصلاح البيت من الداخل.. أشركوا الشعب وقاوموا الفساد وأعيدوا الانتماء إلى النفوس التى ملت وضجت، وهى تشعر الآن بحالة من القهر الشديد.

أعرف أن المنافقين ليسوا قلة، وأدرك أن الحواريين لا يكفون عن التحريض ضد

كل رأى حر على أرض هذا الوطن، وهم لا يعدمون الوسيلة، ولكن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

هل يدرك قادة النظام وحكام الأمة ماذا يقول الناس فى الجلسات والمنتديات، فى المقاهى وعلى ناصية الشوارع، فى المكاتب والبيوت، الكل يشتكى، والكل مهموم، والكل يسأل متى تنفرج الأزمة؟

إن حالة السخط التى تسود الشارع المصرى ليس لها مثيل، وهذا خطر على المجتمع وعلى النظام، ويجب ألا يظن البعض أن حالة الهدوء الظاهرى فى المجتمع المصرى كفيلة بضمان الأمن والاستقرار أبد الدهر، فهذا هو الهدوء الذى يسبق العاصفة.. والعاصفة لن تكون إلا الفوضى التى سيدفع المجتمع بأسره ثمنها.

إذا أردنا فعلاً أن ننقذ ما يمكن إنقاذه فلا بد من الاستماع إلى صوت الناس، لا بد من قراءة الواقع قراءة صحيحة، أما أسلوب كله تمام يا أفندم، فهذا هو الكذب والنفاق بعينه.. الوطن يعيش أزمة حقيقية والهوة شاسعة جدّا بين الناس والنظام، والثقة تكاد تكون معدومة، والأمن لن يستطيع وحده أن يتحمل مسألة تسكين الجراح إلى أبد الدهر.

إذا أردنا الخلاص من الأزمة، فالطريق واضح ومحدد ومعروف، أما إذا استمر النظام على عناده، فالخاسر هو الوطن بأسره، والخاسر هو الشعب بكل فئاته.. ولذلك ليس أمامنا من خيار إما الإصلاح الشامل وإما الطوفان!!

* * *